حضور علماء المغرب الإسلامي في الحجاز

The presence of the Islamic Marghreb scholars in the Hidjaz

د. ذكرى الجد *

جامعة الزيتونة (تونس)، dhekranbl10@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/03/03 تاريخ القبول: 2023/05/01 تاريخ النشر: 2023/06/10

الملخص:

يتناول موضوع الدراسة إسهامات مالكية المغرب الإسلامي في نشر العلم في المشرق. ويهدف البحث إلى إبراز مدى مساهمة هؤلاء العلماء في تنوير المجتمع المشرقي ونشر العلوم والمعارف هناك. فقد شهد العصر الوسيط تطورا فكريا وثقافيا ملحوظا في المغرب والمشرق. وتزامن ذلك مع وجود الموحدين بالمغرب والعباسيين بالمشرق. ومن العوامل المساعدة على هذا التطور الفكري: الرحلات العلمية التي كانت بين المغرب والمشرق الإسلاميين. فقد أدت هذه الرحلات إلى قيام تواصل علمي مما سمح لعلماء المغرب والأندلس بأخذ العلوم والمعارف عن مشايخ المشرق من جهة، ومن إسهامهم في نشر العلوم على اختلافها، من جهة أخرى.

كثرت الرحلات العلمية في العصر الوسيط من المغرب إلى الحجاز، فمن العلماء المغاربة والأندلسيين من رحل إليه ومنهم من مكث مدة ثم عاد إلى بلده الأصلي. ومنهم من بقي هناك إلى حين وفاته. ومن هؤلاء من تصدّر للإقراء والتدريس في المؤسسات التعليمية المشرقية مثل المساجد والمدارس وغيرها. ونافسوا العلماء الحجازيين في المجال العلمي.

الكلمات المفتاحية: المغرب الإسلامي؛ الحجاز؛ الرحلة؛ العصر الوسيط؛ فقهاء المالكية.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The present work aims at studying the contribution of the Islamic Maghreb scholars in the orient during the almohads era. It highlights the extent to which these scholars contribute in the enlightenment of orient societies and the dissemination of science and knowledge.

The factors that contributed to this intellectual development was the internal scientific trips between the West and Andalusia and the external ones, which were between the Islamic East and West. These scientific trips led to scientific communication between East and West. This allowed the scholars of the West and Andalusia to take Science and knowledge from the sheiks of the Orient. On the other hand, their contribution to the spread of religious sciences there like jurisprudence, Hadith, mysticism, poetry, social sciences and mental sciences such as medicine, many Moroccan and Andalusian scholars left to the east in this age-Almohadi- some of them stayed for a qhile then returned to his country and some of them stayed there till his death. Some of these were issued for reading and teaching in Oriental educational institutions such as mosques, schools and others.

Keywords: contributions; Scholars; Islamic Maghreb; Al Hejaz ; Orient.

مقدمة:

تعتبر الرحلة العلمية إحدى الوسائل التي بواسطتها يتم نقل المعارف والعلوم. فقد تميز العصر الوسيط برحلات كثيرة بين بلدان العالم الإسلامي شرقه وغربه فكان أهل المغرب الإسلامي يرحلون إلى المشرق لتأدية فريضة الحج وللاستزادة في تحصيل المعارف، بعد أخذ علومهم الأولى عن شيوخ المغرب والأندلس، فجالوا وصالوا بين الحواضر الثقافية المشرقية، وبعد التحصيل قفلوا إلى بلاد المغرب الإسلامي.[1] ومنهم من كان مقيما هناك بالمشرق مدة تطول أو تقصر، ثم يرجع إلى بلده ومنهم من كتبت له الوفاة في بلاد المشرق، وخلال إقامتهم هناك كانت لهم إسهامات علمية متنوعة.

وتنبع أهمية هذه الدراسة من الحاجة إلى معرفة الجهود العلمية التي قدمت لخدمة الإسلام وعلومه من قبل أهلالمغرب الإسلامي وسبب ذلك هو بعد أهل المشرق عن أهل المغرب وعدم إطلاعهم الكافي على ما قدمه المغاربة في مجالات العلوم المختلفة وعلى رأسها الفقه المالكي، كما أن هذه الدراسة تسعى إلى إبراز المشاركة الفعالة في تاريخ العرب والمسلمين عبر الأجيال المختلفة، وإبراز هذه الجهود يسهم في زيادة التواصل والتعاون المشترك للعمل على خدمة العلوم الشرعية، ويساعد على إيجاد لغة مشتركة بين المشرق والمغرب ورغبة في المحافظة على مصادر الدين والارتقاء بمستوى الطرح العلمي، من خلال إدراك أهمية وجود التبادل العلمي والمعرفي وأثر ذلك على إغناء المعارف المختلفة وعلومها من خلال تبادل الخبرات العلمية وتكاثف الجهود بين علماء المشرق والمغرب.[2]

وفي هذا يقول محمد عوامة :"ولكن أهل المشرق العربي لا زالوا في بعد عن معارف أهل المغرب عامة : مراكش، وتونس والجزائر ... وسائر إفريقية، وعن تلك الرقعة العظيمة الأندلس (فردوس الدنيا) وكل هذه بلاد عاش فيها الإسلام ...وفيها علماء وأئمة، حفظوا العلم وحرسوا الدين، وخدموا العلوم التي تخدم الإسلام والمسلمين، ومع ذلك فقد غاب عن كثير منا ضرورة...أن نتعرف عليهم وعلى تراثهم"[3].

لقد بذل العلماء المغاربة جهودا عظيمة لإبراز ما للمغرب الإسلامي من فضل، فظهرت العديد من المؤلفات التي رصدت جهودهم في مختلف المجالات والعلوم الدينية والإنسانية منها ما كتب في المغرب الإسلامي مثل دراسة صالح أحمد رضا : "مدرسة الحديث في الأندلس وإمامها ابن عبد البر" و"المدرسة المغربية في الجرح والتعديل" للدكتور إبراهيم بن الصديق الغماري، وكتاب "الحديث في بلاد المغرب" لمحمد بن عزوز.

فقد اعتنى كثير من العلماء بدراسة الحياة العلمية لأبرز العلماء المغاربة ممن برعوا وتميزت جهودهم في خدمة المذهب المالكي وممن أضفت الرحلة قيمة إلى مسيرتهم العلمية.

وقد كانت المصادر ككتب التاريخ وغيرها تعج بالتعريف بهؤلاء الجهابذة مثل كتاب ابن الفرضي "تاريخ علماء الأندلس" وكتب الرجال التي اختصت بالمغرب عموما، وكذلك كتب

الطبقات وكتاب أحمد بن القاضي المكناسي "جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام في مدينة فاس".

ومن المراجع الأخرى، كتب اعتنت برصد مؤلفات المغاربة في الحديث وغيره من العلوم، ككتاب "تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه" لمحمد بن عبد الله التليدي و"معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر".

كما ظهرت الرسائل العلمية المتخصصة والتي اعتنت بإبراز جهود علماء المغرب الإسلامي ومن هذه الدراسات العلمية دراسة حميداتو "مدرسة الحديث في الأندلس."

ودراسة شواط مدرسة "الحديث في القيروان" 1407هـ.[4] حيث ألّف كتابه حول مدرسة الحديث في القيروان من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولم يقتصر المؤلف في دراسته على جهود أهل القيروان على اعتبار أنها تمثل المركز العلمي المالكي، والعاصمة السياسية لإفريقية، وموضوع تجمع أهل العلم في تلك الفترة، بل تعرض لجهود أهل إفريقية خلال هذه الفترة الزمنية.

لابد هنا من تحديد المجال الجغرافي لكل من المغرب الإسلامي والحجاز.

تحديد مجال الغرب الإسلامي : إن مجال الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، يبقى معتمدا على التقسيم السياسي، ففي القرن الخامس هجري، الحادي عشر ميلادي، يتمثل في المناطق التي بسط عليها المرابطون نفوذهم انطلاقا من الصحراء إلى الأوسط والأندلس.

وفي القرن السادس هجري، اثنى عشر ميلادي فإن مجال هذا الغرب هو ما سيطر عليه الموحدون أي من المغرب الأقصى إلى الأندلس وطرابلس.

أما مجاله في القرن السابع هجري، الثالث عشر ميلادي فهو ما بسطت عليه الجيوش المرينية نفوذها.[5]

ويشمل المغرب الإسلامي كثير من الحواضر والمدن الإسلامية كالقيروان وتلمسان وتاهرت وطنجة والأندلس وفاس وسبتة.[6] ولفظ "المغرب" ضد "بالمشرق"[7] وقد اصطلح الجغرافيون

والمؤرخون على تقسيم بلاد المغرب العربي إلى المغرب الأدنى 'إفريقية" والذي يمتد من طرابلس حتى مدينة بجاية أو تاهرت غربا وعاصمته "القيروان." والمغرب الأوسط والذي يمتد من بجاية أو تاهرت شرقا، حتى جبال تازا غربا، ويشكل المغرب الأوسط حاليا الجزائر[8]. والمغرب الأقصى والذي يمتد من جبال تازا شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا و الذي يشكل اليوم المملكة المغربية.[9]

إن المغرب الإسلامي مثّل مركز انطلاق علمائه نحو المشرق. الذي مثل بدوره الإطار الذي تحرك فيه هؤلاء مع نظرائهم الحجازيين.

تحديد مجال الحجاز : يعد الحجاز أحد أقاليم شبه الجزيرة العربية الجغرافية الخمسة ويقع في الجزء الغربي منها والحجاز يعني الحاجز وهو الحد الفاصل، كونها تحجز تهامة عن نجد.[10]

وقد كان الحجاز في بعض العصور الإسلامية، يعني مناطق إدارية موحدة تختلف سعتها تبعا للظروف السياسية وقد ظلت الحجاز تحت سيطرة الحكومات الإسلامية منذ العهد النبوي والخلفاء الراشدين، مرورا بالأمويين، والعباسيين، ومن بعدهم المماليك والعثمانيين والهاشميين[11].

وبعد جرد كتب التراجم حاولت الوصول إلى الإجابة عن الإشكالية التالية :

إلى أي مدى أشع العلماء المغاربة بحضورهم في الحجاز؟

وفي إجابة عن هذه الإشكالية حاولت أن أقسم عملي إلى مبحث أول عرجت فيه على نشأة المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي.

وبينت من خلال المبحث الثاني أهمية الرحلة في طلب العلم إلى المشرق ودورها في التلاقح الفكري المشرقي المغربي.

1. نشأة المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي واشعاعه على الحجاز

تميز أهل المغرب بعنايتهم الفائقة برواية الموطأ، حيث دخل موطأ الإمام مالك إلى المغرب الإسلامي منذ القرن الثالث هجري على يد يحي بن يحي الليثي الطنجي المصمودي (ت234هـ) والذي سمع الموطأ من مالك وسفيان بن عيينة ونشر مذهبه في الأندلس ومنه عرف في المغرب.[12]

كان الصحابة رضوان الله عليهم أول من وضع بذرة الحديث وعلومه رواية ودراية بإفريقية والقيروان. وفي عهدهم دخلت نسخة من الأحاديث التي دونت بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[13].

وقد كان آخر الصحابة وجودا بالقيروان هو سفيان بن وهب الخولاني (ت82هـ) وذلك سنة (78هـ).

وكان مما أسهم في إثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، وكلما جاء أمير اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء ، كما فعل يزيد بن حاتم (155 هـ – 170 هـ)، ومنهم من كان يرسل في طلب العلماء والكتب النادرة من المشرق كما فعل إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (161 هـ – 282هـ).[14] وبالتالي فمن سمات هذه المدرسة دعم حكامها للحركة العلمية فيها.

حيث تعتبر القيروان عاصمة المغرب الأدنى والذي كان مركز النشاط السياسي والحضاري في عصر الولاة الأمويين فالعباسيين، ثم في عصور الدول المستقلة : الأغالبة، والفاطميين، وبني زيري والصنهاجيين على التوالي[15].

وقد استمر الحديث بالانتشار في القيروان على أيدي آلاف التابعين، عرف منهم تسعة وأربعين تابعيا. من أهمهم التابعي إسماعيل بن المهاجر الذي أرسله عمر بن عبد العزيز (سنة 99 هـ).

ولقد ساهم علماء المغرب الإسلامي ببلاد المشرق في علم الحديث بقسط وفير مقارنة بالعلوم الأخرى، وهذا نظرا لكثرة المحدثّين والفقهاء الذين هاجروا إلى المشرق في العصر الموحدي من جهة، وتفوق هؤلاء في هذا العلم من جهة أخرى ، إذ نافسوا المحدثين المشارقة، وكانوا أئمة في علم

الحديث، حافظين لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، عارفين صحيحه من ضعيفه، وعكفوا على تدريسه في المساجد والمدارس المشرقية.

أما في علم الفقه، فقد ساهم الفقهاء المغاربة في نشر الفقه المالكي وتدريسه لطلبة المشرق، وتصدروا للإفتاء هناك.

ومن العلماء المغاربة ممن ظهروا وبرزوا في المغرب الإسلامي المحدث الفقيه أبي ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي (ت 357 هـ)، الذي دخل القيروان وسمع بها من أبي بكر بن اللباد (ت333 هـ)، شيخ السنة في القيروان وقد كان أبو ميمونة أول من أدخل الموطأ إلى فاس، وأول من أدخل إليها مدونة سحنون. ومن تلاميذه عبد الله ابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ)، وهو الذي استضافه عنده مدة إقامته في القيروان، والإمام أبو الحسن القابسي (ت 403هـ)[16]. ومحمد بن عبد العزيز بن خلف بن عبد العزيز المعافري (ت601 هـ) سكن مدينة مراكش وتصدر للتدريس بجامع المنصور.

2. رحلة العلماء المغاربة إلى الحجاز: انتفاع واشعاع

لقد كان للعلماء المغاربة دور في خدمة الحديث، ونشر الفقه الإسلامي، تجلى ذلك خاصة في الرحلة في طلب العلم والتي ساهمت في تنشيط الحركة العلمية في المشرق الإسلامي سواء في بلاد الشام أو في مصر أو في الحجاز. حيث بذل الكثير من علماء المغرب الإسلامي في سبيل تحصيل العلم ونشره وتعليمه للناس الجهود العظيمة فكثير من العلماء المغاربة ارتحلوا إلى المشرق واستقروا فيها وقضوا أعمارهم في تعليم العلوم الدينية وتفانوا في ذلك. وترك كثير منهم مؤلفات دلت على جهودهم العلمية المتميزة. ومن هؤلاء الشيخ محمد بن مرزوق الخطيب والشيخ محمد بن إبراهيم الآبلي (ت681هـ).

فقد كان للرحلة في طلب العلم دور في إثراء الحركة العلمية في القيروان أساسا والتي كانت عاصمة الغرب الإسلامي ومركز الإشعاع فيه وكان الغالب على القرويين في رحلاتهم، هو التلقي غير أن كثيرا منهم قد حدّث أثناء رحلته : مثل عبد الرحمن بن أبي زياد الإفريقي (ت161هـ) ،

وأسد ابن الفرات (ت213 هـ) ومحمد بن سحنون (ت256هـ) ، وعبد الله بن أبي هاشم (ت346هـ). وبعضهم استقر في المشرق وبث علمه هناك[17].

ومن آثار مدرسة القيروان وتأثيرها أن كثيرا من المصنفات الحديثية إنما دخلت الأندلس عن طريق من رحل إليها من القيروانيين مثل أبي عمران موسى بن عيسى الفاسي (ت430هـ)، وعثمان بن سعد الصفاقسي (ت444هـ) وغيرهما.

فقد ساهمت القيروان في نشر الحديث والفقه في مختلف مدن إفريقية وقراها. وكان لعلمائها إسهام في إثراء المكتبة الحديثية والفقهية، بالمصنفات والجوامع.

كما حرص علماء الأندلس على جلب ما أمكنهم من المصنفات المشرقية وغيره إلى بلادهم ونسخها والاستفادة منها وتكوين المكتبات التي ساهمت في حفظ العلوم الشرعية، ومن أهم هذه المصنفات :

- موطأ الإمام مالك، وصحيح البخاري، وسنن أبي داود، والنسائي والترمذي وغيرهم.

ولم يكتف الأندلسيون بما وصلهم من الكتب المشرقية وغيرها ، بل ألّف محدثو الأندلس في مجال الرواية مؤلفات كمسند بقي بن مخلد، وكتاب الجمع بين الصحيحين لأبي عبد الله الحميدي الإشبيلي، وكتاب التجريد في الجمع بين الموطأ والصحاح الخمس لرزين بن معاوية الذي يعتبر أصلا لكتاب جامع الأصول لأبن الأثير. وصنفوا في الأجزاء فظهرت كتب لا تزال من المراجع الهامة في أبوابها مثل كتاب البدع والنهي لمحمد بن وضاح القرطبي، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، والاعتصام للشاطبي.

فكان للأندلس أثرا كبيرا في ازدهار الحركة العلمية في القيروان بسبب الرحلة إليها، والتي غلب فيها تلقي القرويين، واشتغالهم بالتحديث عند عودتهم وبالمقابل استقر في القيروان علماء من الأندلس وبثوا علومهم.

- أصبح المغرب الإسلامي منبعا للعلوم الإسلامية والعربية ومنارة للمعارف والآداب نهل منها الفقهاء والمحدثون والمفسرون والمؤرخون من شتى البلدان المشرقية والمغربية حتى غدت في الكثير من عصورها التاريخية من أهم الأقطار الإسلامية وأوسعها شهرة.[18]

أهم العوامل التي ساهمت في تطور الحركة الفقهية في بلاد المغرب الإسلامي

تعتبر كثرة الصراعات وتواليها، على بلاد المغرب الإسلامي من العوامل الرئيسية التي أخرت تطور الحركة العلمية فلم يشهد المغرب الإسلامي استقرارا سياسيا في بداية نشأته على يد الأدارسة، الذين أسسوا مدينتهم في مدينة فاس حيث انقسموا على أنفسهم بعد وفاة ادريس الثاني سنة 213 هـ. ودخلوا في صراعات فكانت أوضاع المغرب في تقلب مستمر، الأمر الذي ترك أثرا واضحا على النهضة العلمية والتي لم تعرف إلا بعد قيام دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس هجري ومن بعدهم دولة الموحدين.

وقد أشار إلى هذا الأمر يوسف حوالة في مقدّمة كتابه : "الحياة العلمية في إفريقية"[19].

إن اضطراب الأوضاع السياسية مثّل عامل منع من وجود نهضة علمية بمعناها الواسع، ولكنه لم يمنع من وجود جهود فردية من أهل المغرب الإسلامي ممن سعى إلى طلب العلم، وخاصة علم الحديث والفقه والرحلة في سبيلهما. وقد كان لتشجيع السلاطين للحياة العلمية دور هام في تطور الحركة العلمية في مختلف المجالات حيث انتشر التدريس في المساجد والمدارس، التي ساهم السلاطين في بنائها، كما بنوا منازل للمدرسين والطلبة وعينوا الجرايات الخاصة بهم ورتبوا الأوقاف على المدارس[20].

كما أن ظهور عدد كبير من الفقهاء ساهم في تنشيط الحركة العلمية فقد حرص الحكام على استقطابهم مثل دعوة السلطان يغمراسن للعالم أبي إسحاق بن يخلف التنسي سنه 680 هـ للقدوم إلى تلمسان والتدريس بالجامع الأعظم.

هذا بالإضافة إلى انتشار المكتبات العامة والخاصة. كما أن الاهتمام بنشر المذهب المالكي ساهم في العناية بالحديث وبالفقه المالكي. ويعتبر ظهور المدارس الحديثية في كل من القيروان والأندلس وفاس[21]، من العوامل التي ساهمت في تنشيط الحركة العلمية الفقهية.

كما ذكرت كتب التراجم، رحلات علمية قام بها علماء المغرب الإسلامي، نحو الحواضر الثقافية المشرقية، وقد شاركوا في نشر العلم، سواء العلوم النقلية أو العقلية ،كانت إسهاماتهم في العلوم الدينية من حديث وفقه وعلوم قرآن وغيره أكثر من العلوم الأخرى، إذ ساهم المحدثون المغاربة بالتحديث في مدارس ومساجد المدن المشرقية.

أ- العلماء المغاربة الذين رحلوا إلى المشرق ومكثوا بها:

إن صلة المغرب بالشام صلة دائمة مستمرة لوجود رابطة الدين والثقافة والحضارة حيث رحل إلى الشام العديد من المغاربة طلبا للحديث والفقه ولقاء كبار الحفاظ. واختاروا المقام هناك مزودين بما تلقوا من العلوم وحاملين ذخائر من التراث ونوادر من الأصول، واستطاعوا في مهاجرهم بالشام، أن يرسخوا وجودهم العلمي فانتهت إلى بعضهم الإمامة والرئاسة وتوارث خلف منهم ميراثهم العلمي.[22]

وقد أحب المغاربة بلاد الشام، خصوصا دمشق التي كانت في القرن الثامن هجري من العواصم العلمية المرموقة، برز أعلام كثيرين أمثال فيها أبي القاسم محمد بن يوسف البرزالي، والإمام الذهبي والمزي...

كما حظي القدس الشريف بمكانة عظيمة عند المغاربة باعتبارها أرض مقدسة بارك الله حولها واختصها بأولى القبلتين. لذلك فقد كان المغاربة مشدودين إلى المسجد الأقصى. وكان بعض العلماء منهم يمكثون بالقدس الشريف أعواما أمثال العلامة أبي بكر الطرطوشي، والإمام القاضي ابن العربي المعافري وغيرهما[23] ...

وقد نشطت حركة العلماء المغاربة ورحلاتهم في مختلف العهود التي حكمت المغرب الإسلامي. ولم يمنع الحكام العلماء من التنقل والترحال في سبيل طلب العلوم المختلفة، وعلى رأسها العلوم الشرعية، كما شجعت الكثير من الظروف طلبة العلم على الرحلة في سبيل طلب الحديث والفقه.

حيث ارتحل الكثير من أهل المغرب الإسلامي إلى المشرق واستقروا بها، ومنهم من عاد بعد سنوات ومنهم من اختار الإقامة في المشرق إلى وفاته.

منهم :

- أبو الخطاب عمر بن الحسن المعروف بابن دحية (ت 633 هـ/1235 م) أدّى فريضة الحج، دخل أصفهان ونيسابور[24] فالشام والعراق وخراسان، فسمع من شيوخها وفي الوقت نفسه أخذ الناس عنه، وقد ألّف لملك خراسان كتابا سماه "التنوير في مولد السراج المنير"[25]، ثم قفل إلى مصر ، ونال حظوة ومكانة مرموقة عند ملكها الكامل[26] فكان معظّما ومحترما عنده، وبنى له دار الحديث الكاملية بين القصرين في القاهرة.[27]

- وبعدما أدى أبو عبد الله محمد بن يوسف الإشبيلي المعروف بالبرزالي[28] (ت636هـ/1238م) فريضة الحج، تجول بين مدن المشرق لأخذ الحديث عن علمائها فزار الحجاز ومصر والشام والعراق وأصبهان وخراسان والجزيرة، كان حافظا محدّثا بالشام، وأم بمسجد فلوس بدمشق مدة طويلة[29]، وحدّث بها، وأخذ عنه، وانتفع بعلمه أهل المشرق بما فيهم الأندلسيون الذين رحلوا إلى المشرق، ونسخ الكثير من الكتب لنفسه وللناس[30]، وتوفي بحماه [31].

- وأسمع أبو عبد الله محمد بن علي الجياني[32](ت 563هـ/1167م) بالموصل زمنا حينما نزل به، وأخذ عنه، ثم سكن حلب وتسلّم خزانة الكتب النورية، وقد وقّف كتبه على أصحاب الحديث ، وكانت وفاته بحلب[33].

- وجال المحدّث والصيدلي أبو العباس أحمد بن محمد الأموي الإشبيلي المعروف بالعشّاب والنباتي وابن الرومية (637 هـ /1239م) في الأندلس والمغرب ، ثم رحل إلى المشرق بنية

الحج سنة 612هـ/1215م ، وأقام بالمشرق ثلاثة أعوام، فزار في طريقه بجاية وتونس، وبالمشرق زار الإسكندرية ومصر والشام والعراق والحجاز، فلقي كبار العلماء بهذه المناطق وحدث بالمشرق فأخذ عنه ببغداد أبو عبد الله بن سعيد بن الدبيقي، وبمصر أبو الحسن علي بن حمام، ومحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن بدرون، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري، وأبو الحسن علي بن قاسم بن محمد بن علي[34].

- وتولى أبو سهل يونس بن الجذام القصري، قصر كتامة، وكانت رحلته مع ابن طربية (ت 641 هـ/1243م) تولى التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة، وكانت رحلته إلى هذه المدينة نحو سنة 617 هـ/1220م. وقد خلف أبا الخطاب بن الجميل بعد وفاته[35].

- وسكن أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله المرسي (ت 655هـ/1257م) بغداد، حينما رحل إلى بلاد المشرق سنة 607هـ/1210م، وتصدّر لإسماع وإقراء الفقه في المدرسة النظّامية، وسافر إلى خراسان، ثم قفل راجعا إلى بغداد مواصلا التدريس بها، ثم خرج منها يريد مصر، فدخلها وحدّث بها، وأخذ عنه الكثير من أهل العلم، ثم غادرها متجها إلى الشام، حيث توفي هناك[36]، وكان إماما فضلا عارفا بالعلوم وتصانيفها[37]، وقيل عنه : "حدّث بمصر والشام والعراق والحجاز"[38]. كما درس بالمشرق جلة من العلماء المغاربة والأندلسيين، إذ حدّث أبو العباس أحمد بن معد عيسى المعروف بابن الإفليشي أبو علي الحسن بن علي بن الحسن (كان حيا سنة 566هـ/1170م)[39].

- ونجد منهم أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك الأندلسي المعروف بابن المالقي (ت بعد 576 هـ /1180م) الذي نزل بدمشق ، وقيل إنه درس بجامع دمشق، وبزاوية المالكية منه.

- وزار أبو الوليد محمد ابن المشرفين أبو بكر بن أبي العلاء بن جنان الشاطبي (ولد سنة 615هـ/1218م) مصر وحلب ودمشق، وتوفي بها.

- وأقام أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن التجيبي المعروف بالحرالي (ت 637هـ أو 638هـ/1239 أو 1240 م) بمصر، فاجتمع إليه أهل العلم ، وانتفعوا منه، ثم انتقل إلى الشام، فأقبل عليه أهلها، وأخذوا عنه.

ومن المغاربة الذين رحلوا إلى بلاد المشرق :

- عبد الله المريني الذي رحل إلى الإسكندرية وأقام بها وانضم إلى ابن رواج وأبي العباس القرطبي، وابن عبد السلام.

شارك العلماء المغاربة في نشر الحركة العلمية في العديد من الحواضر المشرقية حيث عملوا على الأخذ من علمائها وفي نفس الوقت يمنحون ما عندهم لطلاب تلك الربوع مثال ذلك :

- عفيف الدين التلمساني (ت 690هـ/1291م) الذي توفي في دمشق.[40]

- أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني التلمساني فقيه مالكي رحل إلى المشرق قبل سنة 739 هـ.

- الزرماني العجيسي يحي بن عبد الرحمان بن محمد بن عقيل (ت 862 هـ) أخذ الحديث والفقه وأصوله عن شيوخ المغرب الإسلامي، كالإمام أبي عبد الله محمد بن عرفة والإمام أبي عبد الله محمد بن خليفة وآخرين، رحل إلى القاهرة سنة 804 هـ وأقام بها يقرئ ويفيد ويصنف له شرح على الألفية وولي تدريس المالكية إلى أن توفي سنة 862 هـ[41].

- الندرومي أحمد بن أحمد بن عبد الرحمان التلمساني، فقيه مقرئ من أهل ندرومة، أخذ عن ابن مرزوق الحفيد وغيره ورحل إلى القاهرة وتصدّر فيها للإقراء كان حيا بعد 830 هـ[42].

- البجائي إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمان الزواوي، فقيه مالكي نشأ وتعلم في بجاية. وإليها نسبته، رحل إلى المشرق وسكن المدينة المنورة مدّة، ثم انتقل إلى مكة وأقام إلى أن مات سنة (882هـ)، وهو ابن 66 سنة.

- ابن رحمون العلمي (888 هـ) : يحي بن أحمد بن عبد السلام بن رحمون الشريف أبو زكريا بن الشهاب أبي عباس القسنطيني المغربي المالكي، نزيل القاهرة ثم مكة ويعرف بالعلمي بضم العين وفتح اللام.

أحمد بن سعيد بن محمد بن شهاب بن عباس التلمساني (ت 874 هـ) : فقيه مالكي، من القضاة، نشأ وتعلم بتلمسان، ورحل إلى المشرق فولي قضاء الإسكندرية، ودمشق، قال السخاوي :"قرأ على ابن حجر صحيح مسلم وغيره، ومات بدمشق.

ب- العلماء المغاربة الذين رحلوا إلى المشرق ثم عادوا إلى بلادهم:

- أبو عبد الله محمد بن قاسم التميمي الفاسي (ت603هـ/1206 م)، الذي أقام بالمشرق خمسة عشر عاما، فأدى فريضة الحج ، وزار المدينة المنورة والفسطاط والإسكندرية بمصر، وبعض مدن المغرب الإسلامي (طرابلس- تونس – بجاية) فلقي أكثر من مائة شيخ. جمع هؤلاء الشيوخ في فهرسة سماها "النجوم المشرقة في ذكر من أخذ عنه من كل ثبت وثقة". ثم عاد إلى بلده[43].

- وحدث الفقيه المالكي والمحدّث أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي المعروف بابن المزين، والملقب بضياء الدين (ت 626 أو 656 هـ/1228 أو 1258 م) بمصر عندما زار مدن المشرق رفقة أبيه، فانتفع الناس بعلمه وكتبه، وذاع صيته[44].

- وحينما نزل الفقيه المالكي عبد الله بن عبد الرحمن (ت669هـ/1270م) بغداد سنة 633هـ/1235م رفقة أهله وولده وولي التدريس بالمدرسة المستنصرية، وقد ألقى خطبة أبهرت الحاضرين من المدرسين وأمراء الدولة، وبعد سماعها اعترفوا بفضله وغزارة علمه.

- ودرس محمد السلاوي الفقه المالكي بمصر.

- وتصدّر جمال الدين محمد بن يوسف بن موسى الغرناطي (كان حيا سنة 659 هـ/1260م) للإفتاء بمكة، وألّف كتاب "الأربعين المختارة في فضل الزيارة".

- كما درس أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبي الملقب بعلم الدين (ت670هـ/1271م) العلوم وصنّف، وأفتى بالإسكندرية. وكان بارعا في الحديث والفقه المالكي وعلم الكلام والتصوف.

- إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي المطماطي أبو إسحاق التنسي : "كان حيا قبل :(737هـ/1337 م) ، فقيه انتهت إليه رياسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب، روى عن ابن كحيلة نصر الدين المشذّالي، وقرأ بتونس على جماعة. رحل إلى المشرق فزار مصر والشام والحجاز، وأخذ عن الشمس الأصبهاني والقرافي والسيف الحنفي. ثم عاد واستقر بتلمسان وتوفي بها سنة 670 هـ. من تلاميذه : ابن الحاج العبدري صاحب المدخل (737هـ/1337 م) ومن تصانيفه : شرح التلقين في عشرة أسفار.

يقول بشير ضيف الجزائري :"إن للجزائريين تراث ضخم ومتنوع، وقد كانت الرحلة إلى شتى البقاع الإسلامية سببا في توزعه عبر مراكز المخطوطات كالمغرب، وتونس، ومصر، وتركيا، والشام. حيث تعتبر الشام من أكثر البلاد ثراء من حيث تواجد المخطوطات الجزائرية بسبب كثافة وتميز العلاقات بين الجزائريين والشاميين.

ومن العلماء الذين شدّوا الرحال إلى المشرق فانتفعوا ونفعوا بعلمهم كذلك :

- محمد بن أحمد بن إبراهيم التلمساني السوسي الدار (ت764هـ) روى عن ابن تيمية مكاتبة.

- يحي بن أحمد بن عبد السلام أبو زكريا، المغربي المالكي، (ت888 هـ) سمع بمكة على أبي الفتح المراغي وقرأ بالمدينة على الجمال الكازروني، وأقرأ شرح النخبة وغيره وروى البخاري ومسلما والشفا.[45]

وقد ظهر في العصور اللاحقة الاهتمام بالبلاغات لموطأ مالك بن أنس وشرح الأحاديث والعناية بفقه الأحاديث وغيره.

- ابن مرزوق الجد (ت781هـ) محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي أبو عبدالله شمس الدين، فقيه من أعيان تلمسان، رحل إلى المشرق سنة 718 هجرية مع والده وأقام بمصر مدة وعاد إلى تلمسان، تولى أعمالا علمية وسياسية بها ثم رحل الى القاهرة واستمر بها الى أن توفي. له كتب في الحديث منها:" تيسير المرام شرح عمدة الأحكام في الحديث" في خمسة أسفار، وشرح الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي، وشرح الشفا وغيرها من المؤلفات[46].

- الحفيد ابن مرزوق (ت766 - 842هـ/ 1364- 1438م) محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني حفيد ابن مرزوق: عالم بالفقه والأصول والحديث والأدب رحل الى الحجاز والمشرق وتوفي في تلمسان [47].

محمد بن قاسم الأنصاري التلمساني، ثم التونسي، ابوعبدالله، ويعرف بالرصاع (ت894 هـ)، نشأ بتلمسان، وعاش بتونس، من مؤلفاته:" التسهيل والتقريب والتصحيح لرواية الجامع الصحيح"، وله "تذكرة المحبين في شرح أسماء سيد المرسلين".[48]

وتعد المكتبات من مظاهر النهضة العلمية التي لفتت الأنظار إليها فقد تميزت بها دور العلم وخاصة مكتبات الزوايا وما احتوته من مخطوطات تمثل تراث الأمة الإسلامية[49].

خاتمة:

إن المتتبع لجهود العلماء المغاربة في حفظ الدين وحفظ العلوم والاشتغال بها لم تقل درجة عن جهود أهل المشرق وبالنّبش بين ثنايا كتب التراجم، نلمس أن إقبال أهل المغرب الإسلامي على الرحلة في طلب العلم وملازمة كبار العلماء في عصورهم، وارتياد المجالس العلمية، والحرص على السماع منهم، كان سببا في التشجيع على طلب العلم حيت ساهمت الرحلة بشكل فعال في تعزيز حركة العلم واستمرارها، وازدهارها في بلاد المشرق، كما حصل في الشام، ومصر وفلسطين .ومن الميزات التي امتاز بها علماء المغرب عامة حرصهم على اقتناء المؤلفات والمصنفات ونشرها ممّا ساهم

في نشر العلوم المختلفة، وتنشيط حركة النسخ وظهور النساخ، فقد كانوا حلقة وصل ساهمت في تعريف أهل المغرب بجهود إخوانهم من أهل المشرق. وهذا يفسر ظاهرة وجود المكتبات الزاخرة بمختلف التصانيف في مختلف العلوم. فالمخطوطات لا تزال تحوي الكثير من كنوز العلم والمعرفة التي خلفها السلف للخلف.

كما أن إقبال أهل المغرب الإسلامي على المصنفات الحديثية وبخاصة أمهات الكتب كالصحيحين وموطأ الإمام مالك، جعل لعلمائها مكانة علمية هامة لما تميزوا به من نبوغ مما أهلهم من الحصول على ألقاب علمية كالمقرئ والإمام والشيخ والحافظ والفقيه. ومكّنهم من تولي مناصب دينية وتعليمية مرموقة من قضاء وإفتاء وإمامة وخطابة وتدريس. ساهمت هذه الجهود العلمية في تقديم خدمات جليلة انتفع بها أهل المشرق والمغرب على حد سواء، والتي قدمت المصنفات الحديثية والفقهية التي خلّدتها كتب الشروح المتعددة، والمختصرات، والتي ساهمت في خدمة العلوم الشرعية للمغاربة وهذه الجهود المباركة عملت على استمرارية الحركة العلمية ونشاطها مغربا ومشرقا.

اقتراحات

عندما التقت جهود المشارقة بإخوانهم المغاربة كان كل منهم حريص على الإفادة من علم الآخر. مما ألقى على عاتقنا اليوم :

- ضرورة إعادة النظر في الجهود المبذولة لخدمة الدين.
- الحاجة إلى توحيد الطاقات من خلال العمل في مشروعات علمية تتكاثف فيها جهود المسلمين من مختلف الأقطاب.

ولعل هذا ما أراده عبد الحي الكتاني[50] عند حديثه على الصورة المشرقة لتاريخ المشارقة وعلاقتهم بالمغاربة في طلب العلوم بقوله: "إن ارتباط أسانيد المغاربة بالمشارقة، وتعويل الآخرين على الأولين في ميدان المكافحة والمسابقة، وتصدير المشارقة عند رواياتهم بأئمة المغرب، وافتخار أعلام المغرب بالأخذ عن فطاحلة المشرق، تعلم ما كان بين المسلمين قديما من وافر الروابط وكبير

الصلات، وجعل لكل تقليد جيد هب عند الحج والزيارة بواسع الرواية، والتعزز بعز الإجازة أفخر المقاصد وأبهجها، وأوسع المتاجر وأربحها، مما يبرهن لك عن مقدار تقدمهم وارتقائهم، وكبير عزهم وعظيم استغنائهم"[51].

الهوامش:

1 نجادي بو داعة اسهامات علماء المغرب الإسلامي في بلاد المشرق على عهد الموحدين، مجلة عصور الجديدة ، المجلد 10، العدد، مارس 1441 هـ/2020 م.

[2] الفقيه شفاء علي ، أثر جهود علماء الحديث النبوي في تلمسان على المشرق الإسلامي ص 3.

[3] التليدي محمد بن عبد الله ، تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه، دار البشائر الإسلامية، ط 1، بيروت ، لبنان 1416 هـ/1995م ، ص 6.

[4] شواط الحسين بن محمد ، مدرسة الحديث في القيروان ، ط 1، الرياض ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، 1411 هـ..

[5] محمد حامد زينب، الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، دراسة حول حدود المجال، العنصر البشري ...المجلة التاريخية الجزائرية، مجلد 4، عدد 1 ، جوان 2020 http:// WWW.ASJP.CERIST.DZ

[6] ذكر كثير من المؤرخين : إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب وحده مدينة سلاء وبهذا يدخل فيها (طرابلس). ابن العذاري محمد البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ص 5.

[7] الحموي ياقوت : معجم البلدان ج 4، ص 130.

[8] ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية ، ص 54.

[9] ابن البناء شمس الدين أبوعبد الله محمد : أحسن التقسيم في معرف الأقاليم ج1، ص 80.

[10] كحالة عمر رضا، جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص129.

[11] أدهم خليل: دول إسلامية ص.142.

[12] بن عبد الله عبد العزيز، معجم المحدثين ،ص 39.

[13] شواط الحسين بن محمد، مدرسة الحديث في القيروان ج 1، ص 57.

[14] م.ن. ص 54.

[15] حواله يوسف بن أحمد، الحياة العلمية في إفريقية، المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ، رسالة دكتورا، ط 1، جامعة أم القرى، مكة 1421 هـ/2000 م ، ص 8.

[16] شواط الحسين بن محمد، مدرسة الحديث في القيروان ج1، ص 444.

[17] م.ن.

[18] نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن 20، ط1، بيروت ، منشورات المكتب التجاري 1971م، ص 5.

[19] حوالة يوسف، الحياة العلمية في افريقية ، المغرب الأدنى، منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ، رسالة دكتورا، جامعة أم القرى مكة 1421هـ./2000 م، ص8.

[20] ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة ، ص37.

[21] عبد العزيز محمد، التربية الإسلامية في المغرب ، أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية، ص 80-78-90.

[22] عزوز محمد : مدرسة الحديث في بلاد الشام، ط 1، بيروت، دار البشائر الإسلامية 2000م ، ص606 ، بتصرف.

[23] م.ن.606-608.

[24] نيسابور : تقع في بلاد خراسان فتحها عبد الله بن عامر بن كرز سنة 30 هـ/650 م . استولى عليها التتار سنة 618هـ/1221 م فخربوها. من علمائها الأجلاء مسلم بن الحجاج صاحب "الجامع الصحيح" الحميري ، ابن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1 ، 1984 ، ص 588 – 589.

[25] كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار معرض الكتب، طنجة ، ط 2، د.ت ، ص 153-154.

[26] الكامل : أبو المعالي وأبو المظفر أبن الملك العادل سيف الدين بن محمد بن أيوب ولد بسوسة 575 هـ / 1179 تولى سلطة مصر في حياة أبيه العادل وولي حكم مصر وأعمالها سنة 615 هـ /1218 م بعد وفاة أبيه، كان عالما محبا للعلماء ، توفي سنة 635 هـ / 1237م.

[27] المقري ، شهاب الدين أبو العباس أحمد(986-1041 هـ/1578-1631 م) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988 ، ج 6، ص 2002-209.

[28] نسبة إلى برزالة وهي قبيلة بالأندلس : الذهبي شمس الدين : سير أعلام النبلاء ، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط 1 1997. ج 2 ص 56.

[29] ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (595-658هـ/ 1199-1260م)، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر ، بيروت، 1995 م ، ج2، ص 140-141.

[30] ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، 1032-1089هـ/1623-1627م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط1، 1406هـ/1986م، ج 7، ص 318.

[31] الذهبي شمس الدين ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط 1 1997. ج 23 ص 56.

[32] جيان : تقع غرب الأندلس وشرق قرطبة بها علماء فضلاء.

الحميري ابن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق احسان عباس ، مكتبة لبنان. بيروت، ط 1. 1984، ص 183.

[33] ابن الأبار ، مصدر سابق، ج 2، ص 31.

[34] ابن عبد الملك المراكشي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري، 634-703هـ/1237-1303م ، الذيل والتكملة لكتاب الصلة، ج 1، ص652 وما بعدها.

- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ...نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت، د.ت، ص 538.

[35] ابن عبد الملك المراكشي ، مصدر سابق م 5 ،ص 402 -403.

[36] الحموي ياقوت ، معجم البلدان ، ج 4 ،ص 113-114.

[37] المقري ، مصدر سابق ج 2 ،ص 241.

[38] م. ن. ج 2 ،ص 242.

[39] ابن الآبار، مصدر سابق ج 1 ،ص 57.

[40] شقدان بسام كامل عبد الرزاق : تلمسان في العهد الزياني، ص 237.

[41] السخاوي شمس الدين : الضوء اللامع ج 5 ،ص 128 ،السيوطي جلال الدين، نظم العقيان في أعيان الأعيان، ص 61.

[42] التنبكتي أحمد بابا (ت 1063 هـ) : نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، ص 121.

حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله (ت 1657هـ) كشف الظنون ، ج1، ص1986.

[43] مخلوف محمد بن محمد : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية : عبد المجيد هيالي ، ط 1 ، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ج 1، ص 229.

[44] ابن فرحون : إبراهيم بن علي بن محمد برهان الدين اليعمري ت 799 هـ ، البيان المذهب في معرفة أعيان المذهب ، دراسة وتحقيق مأمون بن محب الدين جنان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ص 135.

[45] السخاوي، مصدر سابق ج10 ص216.

[46] نويهض عادل ، معجم أعلام جديدة، ص 141

[47] الزركلي خير الدين، الأعلام ج 5، ص 331.

[48] التنبكتي أحمد بابا ، مصدر سابق ، ص323 .

[49] التنسي أبو عبد الله محمد ، نظم الدرر ، ص123.

[50] الكتاني عبد الحي ولد سنة 1302هـ /1884 م وتوفي سنة 1382هـ/1962م محدث وفقيه وشاعر، سافر إلى الحج المرة الأولى سنة 1323 هـ ودرس في الأزهر ثم في الحرمين والأقصى وفي الجامع الأموي.

الكتاني حمزة : منطق الأواني بفيض تراجم عيون أعيان آل الكتاني ، ص 141.

[51] الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير ، فهرس الفهارس والأثبات، ط 2 ، تحقيق إحسان عباس، بيروت دار الغرب الإسلامي 1402 هـ/1982 م ، ج 1، ص54.